أفظع جرائم القرن التاسع عشر

« القطعة الخامسة من الحوادث التى اعتبرت أفظع جرائم القرن التاسع عشر . وكل منها حادثة مستقلة »

٥ — تحت ستار الحب

بعد الساعة التاسعة بقليل من صباح يوم السبت ٧ يناير سنة ١٨٨٢ غادر المسيو جيلوم برناى المحامى الشهير من بلدة أنفرس منزله قائلا لأحد خدمه: انه ذاهب الى بركسل فى عمل يستغرق النهار ثم يعود فى السادسة مساء ليتناول العشاء ، وترك خبر السفر على هذا الوجه — أى مع خادم — لم يكن بغير سبب . ونظرة تأمل بسيطة فيه تؤدى بالمفكر الى الشك فى حسن العلاقات الزوجية بين المسيو برناى وزوجته . وفى الحق أن منزل آل برناى كان منشقا على نفسه ، وكانت الزيجة التى يرجع تاريخها الى عام ١٨٧٣ غير موفقة ، ومما لا ريب فيه أن الأخطاء كانت من الجانبين على السواء ولكن الظاهر أن الزوج لم يكن عطوفا متسامحا بدليل أنه لم يرب عددا كبيرا من الصحاب . بينما زوجته قد اشتهرت بأنها ذات صفات جذابة وخلابة ، كريمة محسنة بارة . وهذا طبعا فضلا عما كان معلوما عنها من أنها تنظر الى الحياة نظرة رومانتكية خيالية ، وكان برناى رجلا صعب المراس ، عملياً ، ذا مطالع ولو أنها محدودة ، على أنه قد لا يراعى النبل والشرف فى سبيل تحقيق مطامعه ، بل قل إنه لا يأبه لهما مطلقا لأنه كان ذا نهمة جشعة .

وقد نشأ الخلاف بينهما منذ فجر قرانهما ، وما لبثت أن وضعت ابنها الأول حتى انقطع تسريهما بعضهما كل الانقطاع ، بل إنه لولا هذا الطفل — الذى كان والده مغرمين به على السواء — لكان الطلاق قد تم بينهما قبل بدء هذه القصة بزمن طويل على أنه من العدل أن نقول ان كلا من الزوج والزوجة لم يكن يستطيع أن يوجه الى الآخر مطاعن صادقة من النوع الذى يبرر الطلاق . فالزوج رغم شراسته لم يلجأ قط

لما قد يعتبر فى حكم القسوة . والزوجة لم ترتكب حتى ذلك الوقت الخطيئة المنصوص عليها فى الوصيه السابعة

غير أن برناى كان يظهر ميلا شديدا الى خادم رشيقة فى بيته ، وانما لم يكن هذا الميل يعدو حدوده الظاهرة ، ومهما يكن من شىء فان لم يقم بينهما من العلائق مايسمى باسم آخر غير مجرد الميل والعطف . كذلك كانت الزوجة تميل من ناحيتها ميلا أفلاطونيا — وأفلاطونيا فقط — الى رجل محترم بين قومه يدعى ارماند بلزر . وإنه لمن أشد العجب — ولو أنه حقيقة صارمة — أن أمثال هذه العلاقات التى تبدأ وتنمو شريفة يكلأها ويرعاها ملائكة يوقعون أنغامها على القيثارة المقدسة . تكون خاتمتها ونهايتها فى صورة من صور انطباق قوانين الجنايات . يوقع لحنها رجل البوليس على أوتار من سلاسل وقيود حديدية

ولقد كان ارماند بلزر ينتمى لعائلة من أشهر خصائصها أن توارث السلف فيها عن الخلف غريزة فائقة فى أدراك الشئون التجارية ادراكا قصيا ، ومع أنها (العائلة) من أصل ألمانى فقد استوطنت فى الجيل السابق لحوادث هذه القصة مدينتى فرفيرولييج (من اعمال بلجيكا) وولد فيهما اخوات ارماند بلزر — صبية وبنات — وربوا فيهما كذلك ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى أنفرس حيث أنشأ اثنان من أشقائه بيتاً تجارياً واسع الأطراف كبير المعاملات كثيرها ولكنه لم يلبث أن انقضت عليه سنتان حتى زاد المطلوب منه عن المطلوب له وتقدم لأشهار افلاسه

وفى هذا الوقت كان أرماند — وقد امتهن هندسة البناء — مقيما فى « بونيوس ايرس » (من أعمال البرازيل فى أمريكا الجنوبية) فلما بلغته أنباء الكارثة التى حلت باخوته شد رحاله مسرعاً إلى وطنه ، فوصل اليهم وقد بلغت الأزمة منتهاها ولم يبق على اشهار افلاسهم إلا طرفة عين . فجمع كل مالديه من مال منقول وعقار مضحياً به على مذبح انقاذ عائلته فساءت حالته المالية واضطرب مركزه اضطراباً لا مناص من أن يلابسه بضع سنين

ولقد كان تصرفه النبيل على تلك الصورة الحاتمية الكرم هو الذى استلفت نظر مدام برناى نحوه وجذبها اليه ، ذلك لأن زوجها كان وكيلا عن اخوة أرماند فى الدعاوى التى رفعت ضدهم ، أضف إلى هذا أن عائلة مدام برناى وآل بلزر كانا متصلين

بصلات ودية قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل زواج مدام برناى بزمن ليس بالبسير، وزد على هذا أيضاً أن زوجها — رغم ما كان عليه من جمود وجحود نحو كل ما يمت الى العواطف بصلة — كان لا يفتأ يذكر عمل أرماند بلزر فى شىء كثير من الاعجاب والتقدير، بل إن ذلك المحامى الجاف الذى لم يكن له من الصحاب — بله الأصدقاء — ما يبلغ أصابع اليد الواحدة قد اندفع بكليته نحو أرماند بلزر وأصبح يتفقده فى غيابه بأكثر مما يتفقد حديث عهد بالحب حبيبه، فما لبث أرماند أن أمسى ضيفاً مستديماً على بيت آل برناى

وكان أرماند بلزر أرمل وله ابنة صغيرة قد وقف نفسه وحياته رهناً عليها، وكانت ذكريات زوجته الفقيدة وما كانت عليه من خصال حميدة وأوصاف غالية ما تفتأ تستثير أشجانه وتستدر دموعه سيلا مدراراً، فما بالك وهو قد كان — إلى جانب هذا — يعانى أزمة مالية عنيفة لغير ما جريرة ارتكبها ولا خطأ وقع هو فيه ؟!

وأنت تعلم ان مدام برناى امرأة عطوفة إن لم تكن إحساسية. وقد ضاعت عواطفها وحساسيتها هباء على زوجها، وكما قال بيرون « إن ما يهمله رجل يلتقطه آخر » وعلى ذلك ليس عجيباً أن يتبادل ارماند بلزر ومدام برناى شعور المودة فالحب، ألسنا نريد أن نجزم بنوع العلاقات التى كانت قائمة بينهما، على أن ما قد تأكد أمره — ان خطأ وان صوابا — هو أن شكوك المسيو برناى الزوج قد أثيرت بواسطة خطابات غفل من التوقيع تارة، وبما كان يشاهده على وجوه الخدم من الأشارات ذات المعانى تارة أخرى ؟ فما جاء شهر سبتمبر من عام ١٨٨١ حتى كان أرماند بلزر قد حرم عليه قطعياً دخول بيت آل برناى، بعد أن كان حتى ذلك الوقت رسول السلام والمصالحة بين الزوج وزوجته إذا ما شجر بينهما خلاف، وما أكثر ما كانا يختلفان . . .

على أن ذلك التحريم من الزوج على صديقه كان لا يمكن أن يخلو من اتهام صريح . . وكان من الطبيعى أن يدافع ارماند عن نفسه، كما أن مدام برناى لم يكن لها مندوحة عن ذلك . .

وقد بلغ الحال حد تدخل والدها وصديقاتها وأصدقائها فى الامر، وقد أشار بعضهم عليها باتخاذ خطوة حاسمة صيانة لشرفها . ولم يكن من الطلاق مفر،

ولكنها تراجعت . . . ومن المحتمل أن إحجامها فى هذه المرة الثانية عن طلب الطلاق كان لنفس السبب الذى امتنعت أول مرة عن طلبه من أجله . . ذلك هو الطفل ! ! وكان الآن قد جاوز الثامنة ، وما زال أبواه على فرقتهما وعدم تسريهما بعضهما منذ ولادته ، ولكنه الآن قد أصبح غلاما ذكيا جميلا مبشرا بمستقبل زاهر . فكيف تستطيع مع هذا أن تقدم على تلك الخطوة الجريئة ؟ . . . الطلاق ! ! نعم ، لقد ترددت هذه الفكرة ودار البحث حولها بين مدام برناى وآلها وصحبها ، ولكنها طردتها عاجلا . وتلقت قرار حرمان ارماند من دخول منزلها — بسبب ما تواتر من الاشاعات عن العلاقة بينهما — بكل شمم وإباء قائلة إنها لا تكترث للأقوال الكاذبة مهما كانت كثيرة وقوية ما دامت هى واثقة من براءتها وطهرها وإذن فقد استمرت مقيمة فى منزل زوجها . لا تراه إلا على المائدة . . . وإلى جانب هذا كانت ما تزال محتفظة بكرامتها بحيث أنها اذا تقابلت عرضا مع أرماند فى بيت أبيها فأنها كانت تسلم عليه وتلاطفه على مرأى ومشهد من الجميع ، بل وما زالت ابنته ، اليتيمة الام ، والتى كان أرماند ما يزال على اعتزازه لها ولذكرى أمها ، فكانت تلك الفتاة قد نشأت على حب مدام برناى ، كما تعلقت بها مدام برناى نفسها . ولم تجد مدام برناى بدا من المحافظة على كرامتها ازاء الاتهام الكاذب الذى وجه اليها ، فجعلت تستقبل تلك الفتاة وتعنى بها كما تعنى الأم الرءوم بابنتها

وفى هذه الأوقات — أى بعد أربعة شهور من تحريم دخول أرماند بلزو منزل صديقه المحامى جيلوم برناى — سافر هذا الزوج من منزل فى أنفرس صباح السبت ٧ يناير سنة ١٨٨٢ دون أن يخبر أحدا بسفره إلا خادما . وكل ماقاله لذلك الخادم إنه مسافر فى عمل الى بروكسل ، وأنه سيعود قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، أى قبل ميعاد العشاء . . .

وجاءت الساعة السادسة ولم يجىء جيلوم برناى ، وانقضى اليل ولم يعد ، ولا فى النهار التالى ، وفى الحق أنه غطس فى بئر مدة العشرة الأيام التالية ، ولم يسمع عنه فيها أى خبر ولا أثر . . على أن البحث عنه — وقد قامت به زوجتها وأصدقاؤها لم يكن جادا . . وطبيعى أن يكون السبب فى ذلك الحادثان التاليان :

أولا — لأنها لم تتلق داعن البرقية التى أرسلتها الى صهرها فى بروكسل صباح اليوم الأول

لغياب زوجها ، ابنه ، فسافرت بنفسها الى بروكسل ، ولما ذهبت الى منزل صهرها وجدت بابه مغلقا .. ومن حق القارىء أن يعرف هنا شيئا عن المسيو برناى الأب فهو قد كان يهوديا من المحافظين ، وهى مسيحية كاثوليكية ، فلما خطبها جليوم رأت من السخافة أن يكون اختلاف العقيدة الدينية سببا للرفض ، ولم يلبث برناى — الابن والروح — أن انقلب كاثوليكيا ، فانقطعت كل صلة بين الابن ووجه وبين بيت أبيه . الى حد أنه عند ما حلت الكارثة أفهمت مدام برناى أنها لاتستطع الاعتماد على عائلة زوجها فى البحث عنه

ثانياً — لم تكن مدام برناى تظن مطلقاً أن سوءاً أصاب زوجها ، لاسيما وهو قد كان أعلن منذ بضعة شهور عزمه على الانقطاع عن العالم وقضاء الباقى له من أيامه فى دير . . . فابرقت إلى القسيس الذى عمد زوجها فى باريس . ومع أن هذا اجابها بأنه لايعرف شيئاً عن مكان زوجها فانها كان يداخلها أن زوجها لابد قد ذهب إلى دير آخر . . وقد ثبت تماماً فيما بعد أن مدام برناى كانت على ثقة من أن زوجها لم يلاق حتفه ، وأنها ما كانت تشعر بأى خوف أو ريبة سوء عن غيابه ولذلك لم يكن البحث حاراً كما قدمت لك

وقد لبث الموقف عند هذا الحد حتى ١٨ يناير . . . وفى صباحه وصل إلى نيابة أنفرس خطاب عليه طابع بريد من بال (سويسرا) بتوقيع « هنرى فوجان » يقول فيه كاتبه انه تعجب إذ قرأ فى الصحف البلجيكية نبأ اختفاء المسيو جيلوم برناى حيث أنه قد كتب خطابين إلى رئيس نيابة بروكسل وضح له فيهما الحقيقة . ثم استدرج إلى ذكر هذه الحقيقة بقوله « ولا شك أن عدم وصول هذين الخطابين إلى رئيس النيابة قد زاد فى وقع المصيبة . . . تتلخص الحادثة فى أن المسيو جيلوم حضر لمقابلتى فى بروكسل فى ٧ يناير ، وبينما كنا نتحادث شاهد مسدساً معي فاراد أن يتفرج عليه ، وبينما انا أفرجه وقد فتحت الخزانة وأردت اغلاقها ثانية فانضغط اليای وخرجت الطلقة فاخترقت المسيو برناى صريعاً ، فظننت فى أول الأمر انه جرح جرحا بسيطاً فاسرعت وأحضرت الصحن وماءاً للغسيل وماء نشادر ومنشفة ورباطا وعدت مهرولا فوجدت الدم يتفجر من أنفه وما لبث والأسفاه أن مات . . مقتولا بيدى . وأول خاطر وقع لى أن استدعي البوليس وقاضى التحقيق ، ولكنى ما لبثت أن أدركت ان مركزى

فى بركسل — حيث لا أصدقاء لى ولا معارف — سيكون حرجا . ثم تذكرت أن زوجتى وابنتى المريضتين تنتظران عودتى بين آونة وأخرى لأسافر بهما الى الجنوب قصدا الاستشفاء بدفئه فى الشتاء . فقررت أن أسافر لأراهما أولا وأخبرهما بالمصيبة التى حلت بى والتى لا تزال تنتظرنى إما باعدام أو بقضاء بقية العمر بين جدران السجون . ثم يقدم هذا المعترف على نفسه الأدلة الدامغة على أنه هو القاتل بحقيقة . ويختم خطابه قائلا « وإنى لعلى أتم استعداد لتسليم نفسى الى السلطات لتجرى العدالة مجراها »

فلم يسع النائب العمومى عندما قرأ هذا الخطاب إلا أن يقوم بنفسه مستصحبا الطبيب الشرعي وطائفة من رؤساء الشرطة ويتوجه الى المنزل المبين ذكره فى الخطاب . وهناك وجد منزلا مهجورا ليس به من الأثاث الا قطع ستائر ومراوح بعضها مغطى بالستائر والبعض الآخر لم تمسه يد المنظف منذ شهور .... على أن احدى الغرف كانت الستائر فيها مدلاة الى ما تحت النافذة وعلى مقعد فى هذه الغرفة كانت مكومة جثة جليوم برناى وقد اخترقت رصاصة عنقه ما بين الجوزة والأسفل الذقن حتى لقد قرر الاطباء فوراً أن الوفاة حدثت بمجرد الأصابة

وبتدقيق النظر تبين أن هناك بعض بقع دم على البساط مقابل الكرسى المكومة فوقه الجثة، وبعيدا قليلا .. حوالى منتصف الغرفة يعثر المحققون على بقعة كبيرة من دم متجمد . وقرر الطبيب الشرعى أن هذا الدم هو الذى انفجر فى أول الأصابة ، وكان الاستنتاج الوحيد من ذلك هو أن القتل حصل فى غير المكان الذى وجدت فيه الجثة كما ثبت لهم أيضا من عدم وجود بقع من الدم على خط مستقيم بين مكان القتل والمكان الذى وجدت فيه الجثة على الكرسى أن نقل الجثة من مكانها حدث بعد القتل ، وأضاف الشرطة الاخصائيون فى قص الأثر أن النقل حصل بعد القتل بأيام ، وإذن فقد كذب « هنرى فوجام » فى قوله أنه لم يعد الى محل الحادثة منذ يوميا !!

ولكن المهم هو معرفة من هو « هنرى فوجام » ؟ هل كان عميلا من عملاء جليوم برناى ؟ وقبل كل شى هل هو بلجيكى — رغم أن اسمه يدل على غير ذلك ؟! ومن يدرى حتى اذا كان هذا هو اسمه الحقيقى ؟ والى أن تستطاع الاجابة على تلك الاسئلة لا يستطيع البوليس الكشف عن غوامض هذه الجريمة .. ولكن الظاهر أن « هنرى فوجان » كان سخيا جدا فى ترك الآثار التى يستدل منها على شخصيته .. فقد وجد

المحققون فى العرفة التالية عدة قوائم حساب وفواتير واتفاقات مع بعض المحامين المعروفين جميعها معقودة باسم «هنرى فوجان» وفى اوراقه انه نزل فى لوكندات مشهورة فى بلدان عديدة مثل امستردام وهمبورج وبرمن وغيرها . وعلى ذلك أصبح بعيدا عن الشك أن هنرى فوجان نكرة ، لأنه فضلا عن أن فواتير الفنادق باسمه كانت جميعها لفنادق من الطبقة الأولى فقد وجدت فى جيوب القتيل كل الاشياء الثمينة وأضف الى هذا أن مدام برناى — عندما شاهدت جثة زوجها فى اليوم التالى — قررت أن هنرى فوجان من عملاء زوجها وإن كان حديث عهد بهذه المعاملة ، كما تبين بعد ذلك أن تحويلا بعشرين جنيها كان قد وصل المحامى القتيل من عميله القاتل قبل وقوع الحادثة بقليل ، وعرف كذلك أن أول مخابرة دارت بين المحامى وعميله كانت باللغة الانجليزية — على أن هذا أيضا لم يكن كافياً لتعرف شخصية فوجان — ومادامت فكرة القتل من أجل السرقة قد انتفت ، فأى دافع آخر يمكن أن يحمل هنرى فوجان على قتل جيلوم برناى ؟ لاشىء . وعلى ذلك أصبح جميع المحققين فى مقتل برناى واثقين ومقتنعين بأنه لابد أن يكون صحيحاً اعتراف هنرى فوجان بأن القتل قد حصل خطأ

وكاد يكون هناك اجماع على هذا الرأى إلا أن مدام برناى كانت ضمن أقلية ممن لم يأخذوا تلك الأمور قضايا مسلمة ، بل إن شكوكها فى مقتل زوجها قد جاوزت هذا الحد وبلغت أنها جعلت تجس فى نفسها « هل هنا أية علاقة بين « هنرى فوجان » و « ارماند بلزر » ؟

ولما عادت من بروكسل — عقب تعرفها على جثة زوجها وحضورها التحقيقات الموضعية — ذهب اليها أرماند بلزر ليغريها ، ولشد ما أفزعته بسؤالها اياه « اقسم لى بأقدس شىء لديك ، بحياة ابنتك ، انك لاتعرف هنرى فوجان هذا ؟ » فكان جوابه على ذلك « هذا خلط لست أفهم له معنى !! أى خاطر طرأ لك ؟ »

* * *

ومع أن المحققين كانوا قد أصبحوا مقتنعين بأن لاجريمة هنالك ، فلا ريب أنه لم يكن بوسعهم إلا أن يستوفوا اجراءاتهم . فبدؤا باستجواب المسيو « ألمين » صاحب المنزل الذى وقعت الحادثة ، ثم المسيو « جيوت » تاجر المفروشات الذى قدم الأشياء التى وجدت بالمنزل ، ولم تغن المعلومات التى أعطاها هذا الشخصان البوليس قليلا

إذ كانت تتلخص فيما يأتى : فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ حضر الى المسيو ألمين (المالك) رجل فى هيئة رجال الأعمال وقال له إنه من ابناء استراليا : انجليزى الأب اسبانى الأم ! وأنه قادم من استراليا لانشاء شركة للبواخر بين أوربا واستراليا، ويريد من أجل ذلك أن يستأجر منزله حيث وجده لائقاً لمقر الشركة فى بروكسل ، ولكنه طلب مهلة لغاية ١٠ ديسمبر قبل أن يقرر نهائيا هل يستأجر المنزل أو لا يستأجره . . غير أنه عاد الى مقابلة المالك فى ٤ ديسمبر وطلب منه مد المهلة الى ٢٠ ديسمبر لأن زوجته وابنته مريضان ولأنه مسافر بهما الى الجنوب للاستشفاء ، فقبل المسيو المين ، أن يمنحه امتداد المهلة إلى العشرين من ديسمبر ، ولكنه تسلم خطاباً من فوجان فى ١٠ ديسمبر — وطابع البريد من همبرج — يقول له فيه انه حاضر لكتابة عقد الأجارة فى ١٩ ديسمبر .. على أن كتابة العقد لم تتم إلا فى ٢١ منه ، ودفع المستأجر أجرة ستة شهور مقدماً فأذهل المالك عن اتخاذ الاجراء المتبع فى الاستعلام عن المستأجر بل إن ثقة المسيو ألمين (المالك) بالمستأجر — فوجان — قد وصلت الى حد أنه اعطاه خطاب توصية الى أحد تجار المفروشات يدعى المسيو جيو، وقد شهد هذا بأن فوجان قد حضر اليه وأعطاه . . . ١٥ر فرنك تحت حساب فرش المنزل الذى قدرت نفقات فرشه بخمسين الفاً من الفرنكات ، وقال المسيو جيو إن فوجان كان متعجلا فى طلب فرش جزء من المنزل وأنه علل استعجاله بأنه سيستقبل محاميه فى ٧ يناير — وكانت مقابلته مع المسيو جيو فى ٥ يناير — فلما قال له المسيو جيو انه لا يستطيع قطع الستائر على مقاس النوافذ فى الميعاد المطلوب أجاب فوجان بأنه لا بأس من تركيب الستائر مؤقتاً ، بالحالة التى هى عليها واعداد الجزء من المنزل الذى يستقبل فيه محاميه وجماعة من المهندسين القادمين من باريس ولندن لمقابلته ، وقال إنه لا يستطيع أن يستقبلهم فى فندق بريطانيا لأن غرفه مؤدية إلى بعضها وهو لا يسعه أن يتحادث فى الأمور الهامة التى سيتحادث فيها مع القادمين من أجلها خصيصا فى مثل ذلك الفندق

***

هنا نستميح القارىء لنبدى ملاحظة هامة : تلك أن رجال المباحث البلجيكيين قد أطروا أنفسهم اطراء جما عقب الانتهاء من محاكمة قاتلى جيلوم برناى زعماً منهم بأنهم قد كشفوا النقاب عن هذه الجريمة ، والحقيقة أنهم لم يكتشفوا شيئا مطلقاً ! !

ولولا المساعدة التى جاءتهم من الخارج لظل القتلة مجهولين ؛ فأن رجال البوليس قد عجزوا تماما عن إدراك الباعث على قتل برناى وبعبارة أخرى مألوفة إنهم « لم يروا أبعد من مواطئ أقدامهم » . ذلك لأنهم كانوا مقتنعين بصدق الزعم أن هنرى فوجان كان غريباً على آل برناى ، وزاد فى تضليلهم أنه أنفق ما يقرب من العشرين ألف فرنك فى أعداد المنزل للشروع الموهوم . فكانوا من أثر ذلك أميا إلى الأخذ برواية هنرى فوجان نفسه من أن الجريمة إنما هى قتل خطأ

بيد أن الجمهور — لا سيما جمهور أنفرس — لم ينخدع بمثل تلك السهولة والظاهر أن الريبة التى ساورت مدام برناي فى ٩٩ يناير فدفعتها لالقاء ذلك السؤال الفجائى على أرماند قد أحاطت نفس هذه الريبة بالجمهور كذلك رغم أنه لم يقم دليل على أن مدام برناى قد كاشفت أحداً بوساوسها ، والحق أن تلك الريب والظنون لم تكن مبنية على أكثر من الحدس والتخمين ، وكان الزارع لذور ذلك الحدس والتخمين هو أرماند بلزر نفسه بتداخله مع آل برناى ذلك التدخل العميق ثمانى سنوات سويا. كانت خاتمتها تحريم دخوله منزلهم قطعيا ؛ غير أنه لم يكن من السهل أن يقطع أحد بأن أرماند بلزر هو القاتل لجيلوم برناى سيما وأن — أرماند — قد شوهد فى أنفرس (والقتل فى بروكسل) طول نهار اليوم الذى قتل فيه برناى من الساعة التاسعة من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل . بل لقد تبين من التحقيقات أن أرماند قد حرص فى ذلك اليوم على أن يراه جمهور كبير من مختلف الطبقات فى جميع ساعات ذلك اليوم ، على أن اقتناع الناس بأن ارماند لم يكن هو القاتل ليس يمنعهم من أن يفكروا فى نفس السؤال الفجائى الذى ألقته عليه مدام برناى عقيب عودتها من بروكسل وهو : « أقسم لى بأقدس شيء لديك ، بحياة ابنتك ، أنك لاتعرف هنرى فوجان هذا ؟ » . . بل إن الناس قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فى اتهام أرماند فقالوا له كما قال الذئب للحمل : « إذا لم تكن أنت فمن المحتمل أنه أخوك » ، وأرماند لم يكن يستطيع الأجابة بمثل ما أجاب به الحمل : « ليس لى اخوة » لأنه كان له أخوة عديدون وبينهم واحد لا يمكن بأى حال أن يوصف بأنه حمل ، ذلك هو « ليون بلزر » الذى يعتبر بحق أس مصائب تلك الأسرة — أسرة بلزر — ومنبع أحزانها . وقد كان من صنع يدى ليون هذا الافلاس الذى قدم أرماند من « بونيوس ايرس » من أجله وباع

جميع ممتلكاته ليفتديه ، وكان ليون يشتغل إذ ذاك . بالتجارة مع أخ آخر له فى أنفرس وبعد أن انتشلهما أخوهما أرماند من هوة ذلك الافلاس الذى كادا يوقعان نفسيهما فيه ذهب ليون إلى منشستر فلم يغادرها إلا وقد ترك لنفسه فى دوائرها التجارية اسماً لا يحسد عليه، وعاد فأوقع أخاه ارماند فى نكبة أخرى ، ثم سافر ليون بعد ذلك إلى « بوينوس ايرس » حيث كان يقيم روبرت بلزر — أخ آخر لهم — فلم تمض عليه هناك بضعة أسابيع حتى طرده أخوه أشنع طردة لسلوكه المعيب الشائن فسافر من ثم إلى نيويورك تحت اسم مستعار هو « فردريك البرت » . وقد اضطر فى نيويورك لقبول وظيفة دون مؤهلاته بكثير . وماذلك إلا ليعيش ، والحق انه لم يعرف عليه ما يؤاخذ به أثناء اقامته فى العاصمة الامركية ، وليس من العدل أن نجزم بأن نقاء صفحته فى نيويورك كان لعظم اتساعها أو كان من أثر الوظيفة الصغيرة التى لم يكن له مفر من قبولها

ومن جهة أخرى فأنه بالرغم مما كان ليون مشهوراً به من سوء السلوك والنصب والاحتيال فى مدينة أنفرس فان أحداً ممن يعرفونه حق المعرفة فى تلك المدينة ما كان ليصدق أن ليون يستطيع أن يلحق الأذى بحيوان بهيم فضلا عن انسان عاقل : نقول هذا لبين انه لو لم يكن أخا أرماند لما أقدم أحد على مجرد الاشتباه فى اعتدائه اعتداً بسيطاً على أى مخلوق آخر بله الاقدام على ذلك القتل الغادر

وايضاحاً لذلك نقول إن الناس عندما بدءوا يرتابون فى أنه لابد أن يكون لأرماند يد فى موت برناى . كان من الطبيعى ان يتلمسوا معرفة شريكه . فاذا ما أضيف إلى ذلك فداحة الجريمة أمكن استنتاج أن أرماند ما كان ليستطيع أن يفضى بمشروعه إلى شخص غريب عنه ويأتمنه على تنفيذه ، وهذا طبعاً فضلا عن أن أي شخص غريب غير ذى مصلحة ما كان ليرضى مطلقاً بارتكاب هذه الجريمة على النحو الذى تمت به

***

نعود الآن الى تتبع خطوات رجال البوليس فنقول انهم لم يستطيعوا الجمود طويلا ازاء الاشاعات القوية التى أصبحت حديث القوم حول مقتل برناى ، ومع انهم لم يجدوا مبرراً لالقاء القبض على أرماند فقد استدعوه وسألوه عن محل اقامة اخيه ليون ، فأجابهم — بلا أدنى تردد — أن أخاه ليون فى أمريكا . وقدم تأييداً لذلك خطاباً وارداً منه من سنت لويس تاريخه ١٨ نوفمبر ١٨٨١ ووصله حوالى الوقت الذى

قتل فيه برناى ، ومعنى هذا هو أنه لايمكن أن يكون ليون بلزر هو بنفسه هنرى فوجان لأن هنا تقابل مع المسيو ألمين (صاحب المنزل) فى ٢ ديسمبر الخ الخ . . وبالرغم من هذه الأجابة والخطاب الدليل الذى قدم لتدعيمها فقد استمر البوليس موالياً بحثه عن ليون بلزر فى أوربا . وفضلا عن ذلك وضع أرماند تحت رقابة شديدة ، وكذلك مراسلاته ومكالماته . فلما شعر بهذا ظن فى نفسه أنه مستطيع تضليل البوليس عن أثره فأصبح يتلقى خطاباته بواسطة بعض أصدقائه بأن جعل عنوانه لديهم ، وأكثر ما كان يتلقى بريده بواسطة صديقه الحميم الدكتور لافيز ، ولكن هذا الصديق بلغ إلى علمه يوماً الشكوك الحائمة حول صديقه المهندس فارتاب هو الآخر ولم يلبث أن ذهب إلى النائب العمومى وأخبره أنه على غير علم منه كان واسطة التخاطب بين أرماند وليون بلزر ، وأن هذا الأخير موجود فى بروكسل صباح هذا اليوم ، ٥ مارس ، فكان هذا الاعتراف بمثابة حل للعقدة التى ظلت زماناً معقدة . وقبض على أرماند قبل أن تغرب شمس هذا اليوم ، ولبث أخوه يراوغ البوليس ثلاثة أيام قبض عليه بعدها فى « أكس لاشابل »

وحينئذ شرع البوليس يستجمع الأدلة على ثلاثة أشياء هي : أولا أن ليون بلزر وهنرى فوجان ليسا إلا شخصاً واحداً ، ثانياً أنه لم تكن ثم حادثة بل قتل مع سبق الأصرار . ثالثاً أن أرماند كان شريكا لأخيه فى تدابيره قبل الحادثة وبعدها . . . . . فاذا ماثبتت هذه الأشياء الثلاثة يكون البوليس قد كشف عن جريمة من أفظع الجرائم التى ارتكبت فى العالم من جهة الذكاء وأحكام التدبير والجرأة التى لو استعملت فى عمل آخر شريف لجلبت إلى صاحبها شهرة ومالا وفيرين

وقد تبين من التحريات التى قام بها البوليس ان ليون بلزر غادر نيويورك حيث كان منتحلا اسم فردريك البرت وحضر إلى أوربا باتحت اسم بليت ، ثم غير هذا الأسم — بعد شهر — إلى ماريو ، وهذا إلى فالجريف وأخيراً اختار لنفسه أن يكون هنرى فوجان واستعان بأحد الذين يصنعون المكياج للممثلين على المسرح فصنع له هيئة تخفى هيئته الأصلية حتى على أمه التى ولدته فلم يكن يعرفه بها إلا أخوه ارماند ، ثم زار ليون — أو هنرى فوجان — امستردام وبرمن وهمبورج وقابل بعض مشاهير المحامين فى كل من هذه البلاد ودفع لهم اجوراً معقولة فى الاستشارات

السدى لأصبح رجلا ضائعا . وهى فى كل مرة تقول « الفلسطينيون عليك ياشمشون » ولكنه يحل قيوده فى سهوله ويستعد للدفاع عن نفسه بقوته الهائلة . ولابأس من الاطلاع على النص الحرفى الذى يصف نكته فى التوراة : —

« فقالت له كيف تقول أحبك وقلبك ليس معى ! هوذا ثلاث مرات قد ختلتنى ولم تخبرنى بماذا قوتك العظيمة

ولما كانت تضايقه بكلامها كل يوم وألحت عليه ضاقت نفسه الى الموت فكشف لها كل قلبه وقال لها لم يعل موسى رأسى لأنى نزيل الله من بطن أمى فان حلقت تفارقنى وتى وأضعف وأصير كأحد الناس

ولما رأت دليلة أنه قد أخبرها بكل ما بقلبه أرسلت فدعت أقطاب الفلسطينيين وقالت اصعدوا هذه المرة فانه قد كشف لى كل قلبه فصعد اليها أقطاب الفلسطينيين وأصعدوا الفضة بيدهم

وأنامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأسه وابتدأت بأذلاله وفارقته قوته وقالت: الفلسطينيون عليك ياشمشون فانتبه من نومه وقال أخرج حسب كل مرة وأنتفض ولم يعلم أن الرب قد فارقه »

(٧)

أما وقد فارقه شعره المنذور فهو يقع فى يد الفلسطينيين ويعجز عن الدفاع ولكن خاتمته تكون مع ذلك مجيدة بالبطولة وإن لم تسلم من أثر الخيال اليونانى . يبتدى شعر شمشون فى الفصل الثانية وهو فى سجن الفلسطينيين أعمى وذليل ! يجتمع أقطاب الفلسطينيين ليقدموا ضحية عظيمة لداجون Dagan إلههم ويستدعون شمشون ليهزؤا به فيطلب من الغلام الذى يقوده أن يذهب به إلى الأعمدة التى يرتكز عليها البيت .

يأخذ أعداء شمشون فى معاكسته كحيوان فى قفص غير أنه يصلى لله طلبا للقوة عندما يلتف ذراعاه العظيمان على العمودين اللذين فى وسط البيت

« ياسيدى الرب اذكرنى وشددنى يا الله — لتمت نفسى مع الفلسطينيين ! »

« وينحنى بقوة : فيسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته » ولكنه أيضا قد فاضت نفسه بين الأنقاض !

بتصرف عن الانجليزية

عبد الحليم محمد حموده